الرواية والنقـــد

عند أبى عبيدة

— ١ —

كانت رواية الشعر لا تعدو ـ أول أمرها ـ أن تكون بابا من أبواب المتعة الفنية ، يتيح للناس أن يطلوا على ذلك العالم السحرى الذى ما يزال يختلب قلوبهم ويفتن ألبابهم . ثم أتيح لهذا الفن فى العصر الاسلامى من ملابسات الحياة الجديدة ماعظم من أمره ، ورفع فوق ذلك من قدره ، وتجاوز به هذه المنزلة . إذ أصبح الى جانب ذلك الاعتبار ضرورة من ضرورات الحس العربى القومى . وقد أخذت مظاهر الحضارة تساوره ، وجعلت أغشية تلك الحياة الجديدة تقوم من دونه ، فكانت رواية الشعر هى الوسيلة التى يجد فيها ذلك الحس حاجته الى مراجعة تلك الحياة البدوية العربية ، وإرضاء روح الحنين التى كانت ما تفتأ تؤزه وتشعره بأشد القلق ، كأنما تريد أن تنتزعه من هذه البيئة الجديدة ، وتمضى به إلى تلك الحياة الأولى التى حيل بينه وبينها ، منذ اجترفت الفتوح هؤلاء العرب عن أوطانهم التى نشأوا فيها ، ثم اجترفتهم ظروف الحياة وملابساتها ، وحصرتهم هذه الدنيا الجديدة فى نطاقها ، فما يملكون عنها حولا . وهكذا جعلت تنبعث نحو تلك البادية التى تركوها ، والعربى من أشد الناس حنينا الى وطنه ، فكانت رواية الشعر إحدى الوسائل السهلة القريبة التى أخذت تنهنه من ذلك الحنين ، وتستجيب لتلك الحاجة النفسية الملحة ، إذ كانت النافذه التى أتيحت لهم فى ذلك الحجاب الكثيف ، يطلون منها على البادية ، ويستحضرون من خلالها صور تلك الحياة الأثيرة . ثم كانت ـ إلى جانب ذلك أيضا ـ أداة من الأدوات التى يعتصم بها الحس العربى القومى لقاء تلك الأحاسيس الكثيرة الغامرة التى جعلت تأخذه من هنا وهنا

وإذن فقد كانت رواية الشعر نوعا من الاستجابة الطبيعية للحس الفنى العربى ، وبذلك كانت سبيلها الأولى سبيلا فنية خالصة أو قريبا من ذلك . ولكن هذه الحياة الجديدة لم تلبث أن تعقدت أسبابها وتنوعت صورها ، وتشعبت بها المسالك المختلفة . فكان لابد لفن «الرواية» من أن يسلك سبيلها ، ويخضع لما جعلت هذه الحياة تخضع له . وكذلك لم نلبث أن رأينا هذه السبيل التى اتخذتها رواية الشعر تذهب فى اتجاهين ، وتتشعب شعبتين : شعبة فنية تهدف الى تذوق الشعر وإرضاء الحاسة الأدبية ، وشعبة علمية يتولاها العلماء من أصحاب العربية ، ويقصدون فيها إلى الدرس العلمى خالصا ، ويتخذون فيها من هذه « الرواية » أداة لهم ، ويخضعونها لمناهجهم المختلفة فى البحث

فأما الاتجاه الأول ، وهو الاتجاه الفنى ، فإن الفرق كبير بين ماصار اليه وما كان عليه . ذلك أن الأدب العربى لم يعد ـ كما كان الأمر من قبل ـ أدب العرب وحدهم ، ولم تعد الحوافز الفنية ـ سواء فى قول الشعر أم فى الاستماع إليه والاستمتاع به ـ حوافز عربية خالصة ، فقد أخذت الحياة الأدبية تخلص من هذه الارستقراطية التى فرضت ـ بطبيعة الأمر ـ عليها من قبل ، وجعلت الحياة الجديدة بصورها وألوانها واتجاهاتها تداخلها وتشارك مشاركة قوية فى توجيهها ، وأصبح للشاعر التى أنشأتها هذه الحياة أثرها البالغ فيها . فقد كان لابد لذلك كله أن تنحرف رواية الشعر بقدر هذا عن الغاية التى كانت تتجه اليها وتنزع لتحقيقها ، وأن يتغير تبعا لذلك الطابع الذى كان يطبعها ، فتصطنع طابعا آخر يتجاوب مع هذه المشاعر الجديدة ، ويحقق لها المتاع الفنى الذى ترجوه وتستشعر الحاجة اليه

وكما كانت هذه الجماعة الجديدة مزاجا لم ينضج بعد ، ولم يتم ائتلاف مكوناته على وضع ثابت مستقر ، كذلك كانت مشاعر القوم ، وكذلك كانت نزعاتهم فى رواية الشعر وتذوقه مضطربة مختلطة ، لا تكاد تستقر على وضع معين ، أو تتجه الى غاية ثابتة ، إذ كانت العوامل الباطنية التى توجههم وتلون ذوقهم الأدبى مضطربة ، وبذلك

أخذت رواية الشعر فى ذلك الاتجاه الفنى أنماطا مختلفة متلاحقة يتبع بعضها بعضا ، ولا يلبث اللاحق أن يغشى السابق ويبطله ويمحى عليه

وذلك عندنا هو تأويل عبارة الجاحظ التى أوردها فى كتابه « البيان والتبيين » عن هذا النوع من الرواية ، إذ يقول :

« وقد أدركت رواة المربدين والمسجدين ، ومن لم يرو أشعار المجانين ، ولصوص الأعراب ، ونسيب الأعراب ، والأرجاز الأعرابية القصار ، وأشعار اليهود ، والأشعار المنصفة ، فإنهم لا يعدونه من الرواة . ثم استبردوا ذلك كله ، ووقعوا على قصار الأحاديث والقصائد ، والفقر والنتف من كل شى ولقد شهدتهم وما هم على شىء أحرص منهم على نسيب العباس بن الأحنف ، فما هو إلا أن أورد عليهم خلف الأحمر نسيب الاعراب ، حتى صار زهدهم فى نسيب العباس بقدر رغبتهم فى نسيب الأعراب . ثم رأيتهم منذ سنيات وما يروى عندهم نسيب الأعراب إلا حدث السن قد ابتدأ فى طلب الشعر ، أو فتيانى متغزل » (١)

ولاريب أن هذه الجملة من كلام الجاحظ تنطوى على أحاديث طويلة عن العوامل المختلفة التى كانت تسيطر على الاتجاه الفنى للرواية وتوجهه فى هذه الفترة المضطربة ، ولكن ليس هذا موضع الكلام فى هذه العوامل ، وإنما حسبنا ما أوردنا عن ذلك الاتجاه

فأما الاتجاه الآخر ، وهو الاتجاه العلمى الذى جاء نتيجة لتطور الجماعة الاسلامية ، حيث أخذت الحياة العلمية تفرض نفسها ، وأخذ الشعر يصبح مادة من مواد هذه الحياة وموضوعا من موضوعاتها ، فقد كان أمراً لابد منه ، ولا محيص فى طبيعة الأشياء عنه . وبذلك أخذت رواية الشعر مكانها فى الدراسات العربية ، وقد كان لهذه الدراسات أوفر نصيب فى تلك الحياة ، فلاجرم كان للرواية مكانها الظاهر الممتاز .

---

(١) البيان والتبيين ٣ : ٢٣٥ ، ط مصطفى محمد ، القاهرة ، ١٩٣٢ م

ولكنها أصبحت بذلك خاضعة للأهداف المختلفة التي تهدف هذه الدراسات إليها ، ولكل هدف منها منهجه وأسلوبه ، فاختلفت بذلك اعتباراتها ، وكثرت وجهات النظر المختلفة لها : كل يراها بعينه ، وينظر إليها من ناحيته ، ويقدرها بقدر حاجته ، ويطلب إليها ما يدخل في نطاق بحثه ودراسته ، وبذلك أيضا أصبحت موزعة بين هذه المناهج المختلفة لعلوم العربية من لغة ونحو وخبر ، كما أصبحت حيلة على هذه الفنون ، تابعة لها ، متأثرة بأغراضها وطوابعها . وقد اعتبرها كل أداة من أدواته ، ووسيلة من وسائله

ولهذا الاتجاه موضعه أيضا في كتاب «البيان والتبيين» ، ونصيبه من كلام شيخنا الجاحظ عنه ، وتعريفه به ، ووصفه وصفا خليقا بأن يبعث على التأمل ، إذ يقول :

« ولم أر غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب ، ولم أر غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج ، ولم أر غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيه الشاهد والمثل . ورأيت عامتهم - فقد طالت مشاهدتي لهم - لا يقفون على الألفاظ المتخيرة والمعاني المنتخبة ، وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة ، وعلى الطبع المتمكن ، وعلى السبك الجيد ، وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم ، وفتحت للسان باب البلاغة ، ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ ، وأشارت إلى حسان المعاني . ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام في رواة الكتاب أعم ، وعلى ألسنة حذاق الشعراء أغلب . ولقد رأيت أبا عمرو الشيباني يكتب أشعارا من أفواه جلسائه ليدخلها في باب التحفظ والتذاكر . وربما خيل إلى أن أبناء أولئك الشعراء لا يستطيعون أبدا أن يقولوا شعرا جيدا لمكان اعراقهم في أولئك الآباء ، ولولا أن أكون عيابا ، ثم للعلماء خاصة ، لصورت لك في هذا الكتاب بعض ما سمعت من أبي عبيدة ، ومن هو أبعد في وهمك من أبي عبيدة »[1]

---

(١) المصدر نفسه ٣ : ٢٣٦

فهذا هو مجمل القول فى أمر رواية الشعر فى هذه الفترة ، كما يمكن أن تعرف من أخبارها ، وكما يؤديه إلينا الجاحظ عنها ، عن مشاهدة وتتبع وخبرة وبصيرة ثاقبة نافذة ، ثم كما تقتضيه طبيعة الأشياء ومنطق الأمور . فاذا كان موضع أبى عبيدة منها ، وفى أى منزلة نستطيع أن ننزله بين هذه الأنماط المختلفة فيها ؟

— ٢ —

لقد كانت رواية الحياة العربية على النحو الذى اصطنعه أبو عبيدة ، فى حذق وبصيرة ودقة ، هو الموضوع الذى أشرب به فى قلبه ، فعرف به ، واستفاضت به شهرته ، وتميزت به فى نظر الناس شخصيته ، إذ كان قد بلغ منه المبلغ الذى لم يستطع أحد من معاصريه أن يجاريه فيه ، أو ينافسه عليه . منافسة يمكن أن تلحقه به . ولعل ذلك هو تأويل كلمة الجاحظ المشهورة فى إجمال صفته : «ولم يكن فى الأرض خارجى ولا جماعى أعلم بجميع العلم منه» (١) . فالعلم الذى يعنيه أبو عثمان هنا هو — فيما نحسب — علم الأخبار ، إذ لا يمكن أن يكون العلم على إطلاقه . ومثل هذا عبارة أبى نواس ، وهو أحد تلاميذه ، فى سياق المقارنة بينه وبين الأصمعى ، انه « أديم طوى على علم » (٢) . ثم مايقوله عنه عالم أهل الكوفة فى القرن الثالث ، أبو العباس ثعلب — كما يحكيه عنه ياقوت فى سياق ترجمته لأبى عمرو الشيبانى — انه « لم يكن فى أهل البصرة مثل أبى عبيدة فى السماع والعلم » . ثم ما يعقب به ياقوت على هذه الكلمة المنصفة ، وإن كنا نلمح فى خلالها روح العصبية تسرى وتترقرق — ونحن نعرف بعد مبلغ اطلاع صاحب المعجم على التراث الأدبى فى عصره — وذلك إذ يقول فى تعقيبه هذا : « إنى لا أقول إن الله خلق خلقا كان أوسع رواية وعلما من أبى عبيدة » (٣)

---

(١) المصدر نفسه ١ : ٢٧٤ ، وانظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٣ : ٢٥٢ ، ط السعادة ، مصر ، ١٩٣١ م ، ومعجم الأدباء لياقوت ١٩ : ١٥٦ ط دار المأمون ، مصر ١٩٣٨ م

(٢) معجم الادباء ١٩ : ١٥٥

(٣) المصدر نفسه ٦ : ٨٢ . وعبارة أبى العباس ثعلب نقلها ياقوت — فيما يبدو — عن الخطيب البغدادى ، فى تاريخ بغداد ٦ : ٣٣٠

فهذه هى الجهة الأولى والصفة الرئيسية فى شخصية أبى عبيدة العلمية: تمثل الحياة العربية تمثلا صادقا دقيقا محيطا بها ، ورواية هذه الحياة رواية الرجل الثقة البصير المستبطن لها ، المتعقب لأخبارها

وإذن فقد كان أبو عبيدة من طبقة رواة الاخبار الذين عرف الجاحظ بهم ، وذكر بعض خصائصهم ، فى تصنيفه الذى أوردناه آنفا . وذلك - ولا ريب - هو الأصل الأول الذى تجىء بعده وتصدر عنه سائر نواحيه الأخرى ، ومنها الناحية التى عقدنا هذا الفصل لها ، وهى « رواية الشعر » . فهى فى حقيقة الأمر تبع لذلك الأصل ، وصادرة عنه ، وراجعة اليه . وقد أتيح لنا فى غير هذا الموضع أن نفصل القول بعض الشىء فى بيان الصلة بين الأخبار والأقاصيص التى ترددها البادية وبين الشعر ، ورأينا أنهما وجهان فى رواية الحياة العربية يقوم بينهما نوع من الصلة وثيق ، يصدر عن تلك الملابسات التى أوردنا اذ ذاك طرفا منها (١) . وقد كانت هذه الصلة - ولا ريب - مما فتح لأبى عبيدة سبيل « رواية الشعر » ، وأتاح له بذلك أن يذكر بين رواة الشعر وعلمائه وأصحاب النظر فيه

وأخرى أن أبا عبيدة نشأ نشأته الأولى حين كانت البصرة ما تزال جنباتها تتجاوب بأصداء تلك الخصومات الشعرية التى كان يمثلها جرير والفرزدق والأخطل وأشياعهم ، وكانت البيئات العلمية فيها ما تزال مأخوذة بتلك الحركة القوية ، تتخذ منها موضوعا خصبا لدراساتها ، لاتقتصر فيه على رواية شعر هؤلاء الشعراء وشرحه والموازنة بينه ، والمفاضلة بين هذا الشاعر وذاك ، وإنما تمضى إلى ما وراء ذلك وتتجاوزه إلى النظر فى مذاهب هؤلاء الشعراء أو انماطهم التى يتخذونها فى قول الشعر وصياغته ، وفى الأصول الفنية الأولى التى يرجعون اليها ويمتون بها ، وتحاول أن ترجع كل نمط من هذه الأنماط الشعرية إلى ماهو أشبه به وأدنى اليه فى الشعر الجاهلى . فجرير - مثلا - اشبه بالأعشى ، والفرزدق أشبه بزهير ، والأخطل بالنابغة الذبيانى

---

(١) مجلة الكاتب المصرى ، المجلد الثانى ، العدد ٦ ، ٧ (مارس ، ابريل ١٩٤٦ م)

وما كان لأبى عبيدة - وقد نشأ فى ذلك الجو، وجلس إلى تلك الحلقات، وكان له ذلك الطموح الأدبى - إلا أن يجعل رواية الشعر من الغايات التى يقصد اليها ويعنى بها، وأن يتخذ اليه الوسيلة، فيلتمسه كما يلتمس الأخبار، عند هؤلاء الشيوخ من ناحية، وعند رواة الاعراب الذين مازالوا يفدون على البصرة، من ناحية أخرى.

وكذلك استطاع أن يعقد أسبابه بطائفة من هؤلاء الرواة من أهل البادية، ممن كان أكثر اتجاههم إلى رواية الشعر، ثم يجىء الخبر تابعا له، كجويرية بن أسماء صديق كثير بن عبد الرحمن الشاعر وراوية شعره، ومثل هذين الأخوين اللذين يدينان بما صار لهما فى هذه البيئات من مكانة أدبية لصلتهما بجرير الشاعر، وهما: مسحل بن كسيب بن عمران بن عطية بن الخطفى، وأخوه أيوب، ومثلهما فى ذلك أبو دؤاد بن متمم بن نويره، أبوه متمم بن نويره اليربوعى الشاعر الصحابى، وعمه مالك بن نويره صاحب الخبر المشهور فى أيام أبى بكر. ومن هؤلاء الرواة أيضا أيوب بن صبره حفيد الشاعر الخارجى المشهور: الطرماح بن حكيم، إلى غيرهم ممن اتصل بهم أبو عبيدة، وكان حريصا على أن يتاقى عنهم، ويجعل منهم مصدراً من مصادره الأصيلة

وبذلك كانت له منزلته فى رواية الشعر، إلى جانب منزلته فى رواية الخبر

وما ندرى أكان أبو عبيدة يطلب الشعر ويلتمس رواته ليحقق لنفسه أداة من أدواته فى رواية الحياة العربية، كما تتمثل فى الأخبار والقصص، أم كان يطلبه ليكون راوية من رواته، كما كان حماد الراوية فى الكوفة، وكما كان خلف الأحمر فى البصرة. وسواء أكان هذا أم ذاك، فإن استعداده الطبيعى ومواهبه فى تذوق الشعر لم تكن بحيث يتهيأ له أن يكون راوية من رواته كما كان حماد وخلف، فقد كانت تقصر به عن هذه الغاية، بقدر ما كانت مواهبه فى القصص العربى تسمو به صعداً وتذهب به بعيداً، حتى ما يكاد يلحقه فيه لاحق. وبذلك كانت منزلته فى رواية الشعر فى المكان الثانى بالقياس إلى رواية الأخبار، وظل الشعر بالنسبة اليه أداة من أدواته، على النحو الذى يقرره الجاحظ عن هؤلاء الرواة فى النص الذى أوردناه.

ولكن ينبغى أن نقرر هنا أن هذا الحكم ليس على إطلاقه فيما يخص أبا عبيدة ذلك أنه لم يكن من رواة الأخبار بالمعنى القريب اليسير، فيكفيه من القصة أن يروى حوادثها، ويسوق أجزاءها، كيفما اتفق له، ويظفر من ذلك بإرضاء النزوع الساذج عند العامة. وإنما كان - كما أتيح لنا أن نرى من قبل - يتعمق ويتغلغل ويستقصى لالتماس المقومات المختلفة للحياة العربية، حتى يستطيع أن يتمثلها تمثلا صادقا شاملا دقيقا، ويتعرف جو هذه الأقاصيص تعرفا مستبصراً دائباً، حتى يحيط بوجوهه المختلفة. وقد يكون فى تلك الأخبار، مع هذا التقصى، ما يتيح له بعض ذلك، ولكن هنالك - ولا ريب - ما لا يتيحه له غير شعر هؤلاء الشعراء الذين عاشوا فى ذلك الجو وانطبعوا به، ولا يكاد يجد الوسيلة اليه فى غير تلك الصور الشعرية التى يعبر عنه تعبيراً دقيقا، وتصوره تصويرا حيا نابضا. وبذلك كانت دواعى أبى عبيدة إلى رواية الشعر لا تقف عند المقتضيات القريبة لرواية الخبر، كما هو الشأن فى عامة الرواة. وجدير بمثل هذا الاعتبار أن يرفع من مكانته فى رواية الشعر، ويميزه فيها عن غيره من رواة الأخبار

وكما كان لهذا الاتجاه أثره على ذلك النحو فى رواية أبى عبيدة للشعر، كذلك كان له أثره فى مبلغ فهمه له، وإدراكه لمعانيه. ذلك أن تمثله للحياة العربية الجاهلية هذا التمثل، وإحاطته بصورها ومدركاتها، واستغراقه فى ذلك، من شأنه أن يجعله أدنى الى فهم الصورة الشعرية الصادرة عنها، وأدق فى إدراكها، إذ يجعل معرفته للغة بدلالاتها المفردة والتركيبية معرفة حية متصلة عنده بحقائقها، لا معرفة حفظ وتلقين فحسب. ولو أنه اتخذ هذه الحاسة اللغوية الدقيقة المستبطنة لحقائق الدلالات مصدره الأول - بل الأكبر فى تفسير معانى الشعر وبيان وجوهه، لبلغ فى ذلك مبلغا ممتازا. ولنا سابق أمثلة من تفسيراته الموثق بها ليدلنا هذه الدلالة. ولكن الرجل كان - فيما يبدو - مغترا بما أصابه من توفيق فى الناحية الاخبارية، فحمله ذلك على أن وضع الأخبار والأقاصيص فى المكان الاول فى تفسير الشعر، وإن كانت مما يحتمل الوضع والصناعة والتلفيق. وكانت تفسيراته بذلك عرضة للضلال

والخطأ . ولولا أن الأصل فيه والناحية الاولى فى شخصيته العلمية هى رواية الأخبار لا رواية الشعر ، لكان الأجدر به ، والأولى أن يكون فى المكان الاول عنده . فى فهم الشعر وتفسيره ، هو ذلك الذى أتيح له من معرفة اللغة معرفة حية ، اجتمعت لها عناصر الحياة من هذه الدراسات التى أخذ نفسه بها ، واستغرق أعظم الاستغراق فيها

— ٢ —

وبعد فهذه وجهة أبى عبيدة فى رواية الشعر ، وتلك هى سبيله اليه ، وذلك مبلغ ما أتيح له منه ، ولا ريب أن لهذا أثره المباشر فى توجيه نزعته النقدية ، وفيما أثر عنه من أحكام أدبية

فهناك أثر عام لاصطناع رواية الاخبار هو الذى أشار اليه الجاحظ من الصدوف عن مواطن اجتال الفنى فى الأثر الأدبى أو الشعرى ، والغباء عن دقائق الفتنة التى يتضمنها ، سواء فى لفظه أم فى أسلوب صياغته ، أم فى توقيع موسيقاه ، أم فى دلالته ومعناه ، الى غير ذلك من مثارات الروعة الفنية . كأن انصراف الراوية الاخبارى الى تتبع الأخبار وتقصيها وتلقفها يفقده ملكة التذوق الأدبى ، والقدرة على ملاحظة الخصائص الفنية التى يمتاز بها الشعر ، إذ كانت هذه الخصائص أموراً ليست من ظاهر الحياة التى تصدر هذه الأخبار ـ فى الجملة عنها ـ ولكنها من باطن الروح ، وإذ كانت الوسيلة الى إدراكها ليست الحواس الظاهرة ، بل المشاعر الخفية الباطنة . وإذ كان هؤلاء الأخباريون ، أو عامتهم ، إنما يعيشون فى عالم من الحوادث يتتبعونها ، وشتان بين هذا الذى يعيشون فيه ، ويغمرون مداركهم به ، وبين عالم المعانى ودقائق الشعر ولطائف البيان

فذلك هو الأثر العام لرواية الأخبار ، وتلك هى جملة القول فى تكييف موقف الراوية الاخبارى من الشعر . وضرب الجاحظ المثل لذلك ـ كما رأينا ـ بأبى عمرو الشيبانى الكوفى ، معاصر أبى عبيدة ، فى إشارته العابرة اليه ، وقد ذكر قصته فى موضع آخر ، وهى تفصل لنا ما أجمله من الرأى هناك ، وتوضح ما أشار اليه ، كما تبين لنا مبلغ ماجنت رواية الأخبار على تذوق الشعر . قال :

« وانا رأيت أبا عمرو الشيبانى ، وقد بلغ من استجادته لهذين البيتين ، ونحن فى المسجد يوم الجمعة ، أن كلف رجلا حتى أحضره دواة وقرطاسا ، حتى كتبهما له . وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لايقول شعراً أبداً . ولولا أن أدخل فى الحكم بعض الغيب ، لزعمت أن ابنه لايقول شعراً أبداً . وهما قوله :

لا تحسبن الموت موت البلى ... فإنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ، ولكن ذا ... أفظع من ذاك لذل السؤال »

ثم يقول الجاحظ فى التعقيب على هذا : « وذهب الشيخ الى استحسان المعنى ، والمعانى مطروحة فى الطريق ، يعرفها العربى والعجمى ، والبدوى والقروى . وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء ، وفى صحة الطبع وجودة السبك . فانما الشعر صياغة وضرب من النسج وجنس من التصوير »[1]

وإذن فهؤلاء الأخباريون الذين يمثلهم أبو عمرو الشيبانى إذا اتجهوا الى الشعر ونظروا فيه ، فانما يقفون عند هيكله العام وخطوطه الأولية الظاهرة ، وكأنهم لايرون فيه إلا مايعتبرونه فى الخبر ، فهم يخضعون لذلك المقياس ، فأما ماوراء ذلك الهيكل العام والمعنى « المطروح فى الطريق » من الخصائص الفنية التى لا يكون الشعر شعراً إلا بها ، فذلك مما صرفهم عنه ، وباعد بينهم وبينه ، ذلك الجو الذى أحاطوا أنفسهم به ، وطبعوا حياتهم العقلية بطابعه ، وخضعوا لمقتضياته وملابساته ، وهو جو الأخبار والحوادث

ولاريب أن روح الفن يمكن أن تداخل كل شىء فى الحياة . فكما أن للشعر فنيته التى تتمثل فى تلك الدقائق التى أشار الجاحظ إليها ، فللأخبار أيضا فنيتها فى السياق والسرد والتنظيم والتنسيق وجودة العرض ومراعاة النسب وإظهارها فى صورة أدنى إلى الحياة وأقرب إلى مداخلة النفس . ولكن هذا شىء وذاك شىء آخر . وقد يكون

---

(١) الحيوان للجاحظ ٣ : ١٣١ ، نشرة عبد السلام هارون ، ط مصطفى البابى الحلبى مصر ، ١٩٣٨ م ، وانظر : دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجانى ، ص ٨٥ ، نشرة رشيد رضا ، ط الموسوعات ، ١٣٢١ هـ

الرجل عظيم الحظ جليل الموهبة فى فن القصص ، دون أن يكون له فى فن الشعر ولا فى تذوقه واستبطان لطائفه والاهتزاز لروائعه نصيب ، ودون أن يكون فى هذا ما يمكن أن يضع من شأنه أو يغض من منزلته . وقد رأينا كيف كانت روح الفن الأخبارى تكاد تبلغ ذروتها عند أبى عبيدة فى عصره . ولكن ذلك لا يقتضى أن تكون له هذه الروح الفنية فى تذوق الشعر ، وهو الأمر الذى يبدو لنا من خلال درسه ، بالرغم مما نعرف معرفة اليقين من حسن فهمه له ، وقد اجتمع له كثير من وسائله ، ولكن الفهم مرحلة دون مرحلة التذوق . وقد كان تلميذه أبو حاتم السجستانى يقول فى صفته إنه « كان مع علمه إذا قرأ البيت لم يقم إعرابه ، وينشده مختلف العروض »(١) . ولهذا دلالته على مقدار حظ أبى عبيدة من الذوق الفنى الشعرى . وقد رأينا الجاحظ مع مايبدو من شدة إعجابه به ، ومبالغته فى الثناء عليه ، لا يسلم له هذه الناحية ، فهو يغمزه ويعرض به فى سياق حديثه عن مبلغ تذوق الأخباريين للشعر ، وما يمنعه من التصريح برأيه وتصوير أمره إلا ما يضمر من إجلاله له وإكباره لعلمه ، وما يحس من الحرج فى مثل ذلك

فأبو عبيدة لم يكن ، إذن ، بدعا بين رواة الأخبار ، من ناحية الذوق الفنى . وإذ كان الذوق الفنى هذا هو الأصل فى ملكة نقد الشعر ، فإننا نستطيع أن نخلص الى القول فى غير تحرج أن أبا عبيدة على جلالته فى الناحية العلمية ، لم تكن له هذه الملكة ، كما نستطيع القول بأن ما كان يتكلفه من نقد الشعر والموازنة بينه لم يكن يصدر فيه عن طبع أصيل فى النقد ، وانما هو - فى حقيقة أمره - نقد رجل عالم يرجع فيه إلى آراء شيوخه وأساتذته ، كأبى عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب ، أو يخضع فيه لبعض الاعتبارات الشكلية التى لاتكاد تمت بسبب الى الاصالة الفنية

وبهذا الاعتبار كان رجل كأبى نواس - وهو تلميذه ومن نعرف فى إكباره له - ينظر إلى أحكامه الأدبية بشىء من الاستخفاف ، فلا يكاد يقيم لها وزنا . فقد سئل

---

(١) معجم الادباء ١٩ : ١٥٦

ابو نواس مرة عن جرير والفرزدق أيهما أشعر ، فقضى لجرير وفضله على الفرزدق ، كما يحكى صاحب العمدة . فقيل له : إن أبا عبيدة لا يوافقك على هذا . فقال : ليس هذا من علم أبي عبيدة

وكثير من أحكام أبي عبيدة الأدبية تجيء في الرواية مسندة الى هذا أو ذاك من شيوخه ، على أنا قد نقع أحيانا على شيء من هذه الاحكام يجيء مجردا من ذلك الاسناد ، فيقع في الوهم لأول وهله ، أنه حكم له قد استقل بالرأي فيه . ونجد لذلك مثلا فيما ذكره الجاحظ - في سياق كلامه عن الضب - عقب إيراده هذه القطعة من شعر امرىء القيس ، في وصف الغيث :

ديمة هطلاء فيها وطف ... طبق الأرض تحرى وتدر
تخرج الضب اذا ما أشجذت ... وتواريه اذا ما تعتكر
وترى الضب ذفيفا ماهراً ... ثانيا برثنه ما ينعفر

فقال أبو عثمان في عقب ذلك : « وكان أبو عبيدة يقدم هذه القصيدة في الغيث على قصيدة عبيد بن الأبرص ، أو أوس بن حجر ، التي يقول فيها أحدهما :

دان مسف فويق الأرض هيدبه ... يكاد يدفعه من قام بالراح
فمن بنجوته كمن بعقوته ... والمستكن كمن يمشي بقرواح

وأنا أتعجب من هذا الحكم » (١)

فهذا الحكم الأدبي الذي يحكيه الجاحظ عنه في المفاضلة بين هاتين القطعتين يبدو بادىء الرأي أنه صادر عنه ، وأنه مستقل به . وقد اكتفى الجاحظ في التعليق عليه بالتعجب منه ، على أنا نستطيع بشيء من التتبع أن نعرف من أين صدر أبو عبيدة بهذا الحكم الذي يتعجب منه أبو عثمان ، فهاهو ذا صاحب الشعر والشعراء ، يحكي في الفصل الذي عقده لامرىء القيس هذا الخبر : « قال يونس النحوي : قدم علينا ذو

---

(١) الحيوان ٦ : ١٣١ - ١٣٢

الرمة من سفر ، وكان أحسن الناس وصفا للمطر ، فذكرنا له قول عبيد وأوس وعبد بنى الحسحاس فى المطر ، فاختار قول امرىء القيس :

ديمة هطلاء فيها وطف طبق الارض تحرى وتدر »[1]

فهو ـ كما ترى ـ مقلد فى هذا الحكم الذى كان الجاحظ يتعجب منه ، كما هو فى معظم أحكامه الأدبية ، ولكنه مع هذا مقلد فى حدود هذه الشخصية العلمية التى تكونت بين صور الحياة العربية الصميمة وآثارها الادبية التى تحمل طابعها وتتسم بخصائصها ، فهو فى الواقع تقليد تلونه هذه الشخصية بلونها ، وتخضعه قدر ما تملك لطبيعتها ومزاجها

ومن هذا ما نلاحظه فى جميع هذه الأحكام الأدبية ، سواء مايبدو أنه مستقل فيها ، أم مايصدر عن غيره فى إقرارها ، ففى جميع هذه الاحكام يبدو انه من المحافظين الذين يؤثرون القديم ، ويعتبرونه المثل الذى لابد للشاعر المجيد من احتذائه ورعاية خصائصه . وبذلك لم يكن يرى من شعراء الاسلام أحدا جديرا بوصف الشعر غير الشعراء الثلاثة : الأخطل وجرير والفرزدق[2] ، لأن الأخطل ـ كما كان يقال فى مجلس أستاذه أبى عمرو بن العلاء ـ يشبه النابغة ، ولأن جريرا يشبه الاعشى ، ولأن الفرزدق يشبه زهيرا [3] . أما أول هؤلاء الثلاثة مكانا عنده فالأخطل ، لأنه ـ كما يحكى صاحب الاغانى عنه ـ « اشبه بالجاهلية . وأشدهم أسر شعر ، وأقلهم سقطا »[4] فالمقياس الأدبى عنده هو الشعر الجاهلى بتلك الصفات الغالبة عليه ، من قوة الأسر وإحكام الديباجة فى تركيب الجملة وبناء القصيدة ، ومن الروح البدوية فى الصور

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١ : ٥٨ ، ط دار احياء الكتب العربية ، ١٣٦٤ هـ

(٢) « شعراء الاسلام الأخطل ثم جرير ثم الفرزدق » الاغانى ٨ : ٢٨٦ ، ط دار الكتب المصرية

(٣) انظر مثلا : الأغانى ٨ : ٥

(٤) المصدر نفسه ٨ : ٢٩٢

الشعرية ، وعلى مبلغ توفيق الشاعر فى التوفية لهذه الصفات ومجاراة هذه الروح تكون مكانته الشعرية فى اعتبار هذه المدرسة التى ينتسب اليها أبو عبيدة

وليست الجاهلية التى يصطنع منها هذا المقياس زمنا معينا ، بل هى عنده ذلك الأسلوب وهذه الخصائص ، فاذا خرج شاعر جاهلى عليها أو انحرف عنها ، فليس هناك ، كعدى بن زيد العبادى ، فهو فى رأيه أو فى رأى هذه المدرسة ، فى الشعراء بمنزلة سهيل فى النجوم : يعارضها ولا يجرى مجراها »[1] . ولعل فى هذه القصة التى يوردها صاحب الامالى ما يزيد هذا المذهب عنده وضوحا :

« قال ابو حاتم : اتيت أبا عبيدة ومعى شعر عروة بن الورد ، فقال لى : مامعك؟ فقلت : شعر عروة . فقال : فارغ حمل شعر فقير ليقرأه على فقير . فقلت له : مامعى غيره ، فأنشدنى أنت ما شئت . فأنشدنى :

يارب ظل عقاب قد وقيت بها	مهرى من الشمس والأبطال تجتلد
ورب يوم حمى أرعيت عقوته	خيلى اقتصارا وأطراف القنا قصد
ويوم لهو لأهل الخفض ظل به	لهوى اصطلاء الوغى ونار تقد
مشهرا موقفى والحرب كاشفة	عنها القناع وبحر الموت يطرد
ورب هاجرة تغلى مراجلها	مخرتها بطايا غارة تخد
تجتاب أودية الافزاع آمنة	كأنها أسد تقتادها أسد
فان أمت حتف انفى لا أمت كمدا	على الطعان وقصر العاجز الكمد
ولم أقل : لم اساق الموت شاربه	فى كأسه والمنايا شرع ورد

ثم قال : هذا الشعر ! لا ما تطلون به أنفسكم من اشعار المخانيث »[2]
فأبو عبيدة يرفض ـ فى هذا الخبر ـ شعرا جاهليا هو شعر عروة بن الورد ،

---

(١) المصدر نفسه ٢ : ٩٧

(٢) الأمالى لأبى على القالى ١ : ٢٦٥ ـ ٢٦٦ ط دار الكتب المصرية ، ١٩٢٦ م

ويؤثر عليه شعرا إسلاميا هو شعر قطرى بن الفجاءة . والعلة الظاهرة فى ذلك أن شعر قطرى هذا أكثر جاهلية فى صياغته وصوره ، وأشد تحقيقا لمعانى الحياة البدوية والفروسية العربية ، من شعر عروة . وإن كان ينبغى ألا نغفل شيئا آخر قد يكون له أثره فى هذا الإيثار الى جانب مايبدو لأول النظر ، وهو أن قطرى بن الفجاءة شاعر خارجى ، وأبو عبيدة معروف بنزعته الخارجية ، وهى النزعة التى ترجع عندنا - فى بعض ماترجع اليه - الى ذلك المزاج البدوى الذى كونته له حياته العقلية الطويلة بين صور البداوة وآثارها واستغراقه فيها . فالامر - كما نرى - قريب بعضه من بعض . إذ كانت خارجية أبى عبيدة ليست فى اكثر أمرها إلا مظهرا من مظاهر التوجيه البدوى عنده

ولعل ذلك كان من أول الاسباب التى جعلته لا يكاد يرى فى الشعراء المحدثين أحدا أجدر بوصف الشعر من السيد الحميرى وبشار بن برد [1] . فهما عنده أشعر هذه الطبقة من الشعراء ، ونستطيع أن نقدر هذا على وجهه اذا نحن عرفنا أن هذين الشاعرين كانا أحرص أهل طبقتهما على الخصائص التقليدية للشعر العربى . فأما السيد فكان - فيما يبدو لنا - أطبع أهل عصره على الاسلوب البدوى ، حتى كان الاصمعى على تجافيه عنه ، وإنكاره لمذهبه السياسى الذى كان يتمثل فى شعره ، يقول عنه : «قبحه الله ! ما أسلكه لطريق الفحول ! لولا مذهبه ولولا مافى شعره ماقدمت عليه أحداً من طبقته» [2] . وكذلك كان رأى العتبى فيه ، اذ يقول عنه : «ليس فى عصرنا هذا أحسن مذهبا فى شعره ، ولا أنقى الفاظا من السيد» [3] . وحكى غانم الوراق أنه خرج الى بادية البصرة ، فصار إلى عمرو بن تميم ، فجعل ينشدهم لذى الرمة وجرير ، ثم أنشدهم للسيد . قال : «فجعلوا يمرقون لانشادى ويطربون . وقالوا :

---

(١) انظر : الاغانى ٧ : ٢٣٢

(٢) المصدر نفسه ٧ : ٢٣٢ ، وانظر رواية أخرى عن التوزى أيضا بعد هذا الموضع ٧ : ٢٣٦

(٣) المصدر نفسه ٧ : ٢٤٧

لمن هذا ؟ فأعلمتهم . فقالوا : هو والله أحد المطبوعين . والله ما بقى فى هذا الزمان مثله » (١)

فذلك هو ما جعل أبا عبيدة يقبل على شعر السيد الحميرى ويكثر من روايته ، ويقدمه ، بالرغم من مخالفته له فى المذهب السياسى . وأما بشار فكذلك كان شأنه فى جملة القول ، حتى كان الاصمعى يجعله خاتمة الشعراء ، وإن كان ينزع بشعره فى بعض الاحيان نزعة تجديدية . ويبدو لنا أنه كان هنالك نوع من الصلة الشخصية بين أبى عبيدة وبشار ، وأنه كان لهذه الصلة شىء من الأثر فى إعجابه به وتقديمه له . ولكنا لا نشك فى أن سلوك بشار بشعره مسلك الشعراء المتقدمين ، كان من أول الاسباب التى ذهبت بأبى عبيدة الى ذلك المذهب فيه . ولقد كان شديد الإعجاب بميميته :

أبا جعفر ما طول عيش بدائم ... ولا سالم عما قليل بسالم (٢)

ونحن نعلم أن هذه القصيدة كانت من أحسن شعر بشار وأشده إحكاما ورصانه عبارة ، وإيثارا للديباجة العربية القوية الصريحة ، كما أنها كانت تقترن فى منهجها الفنى بميميتى جرير والفرزدق :

ـ تحن بزوراء المدينة ناقتى ... حنين عجول تبتغى البو رائم
ـ ألا حى ربع المنزل المتقادم ... وماحل مذحلت به أم سالم (٣)

فأكبر الظن عندنا أنه كان لصياغة هذه القصيدة ، وذهابها مذهب شعر جرير والفرزدق ، من أول ما أنزلها تلك المنزلة فى نفس أبى عبيدة ، إلى جانب ما كانت تسبغه عليها الظروف الملابسة لإنشائها فى البصرة ، والحالة النفسية فى بيئاتها المختلفة

---

(١) المصدر نفسه ٧ : ٢٣٨ـ٢٣٩

(٢) « ابو عثمان المازنى : سمعت أبا عبيدة يقول : ميمية بشار هذه أحب الى من ميميتى جرير والفرزدق » الأغانى ٣ : ١٥٨

(٣) أنظرهما فى نقائض جرير والفرزدق ٢ : ٥٥ ، ١٠١ ، ط الصاوى

تجاه الدولة الجديدة ، مما لانستطيع أن نبرىء أبا عبيده من التأثر به فى حكمه عليها.

ومهما يكن من أمر ، فاننا نرى - ولاريب - فى مثل هذه الأحكام الأدبية ، وفى هذه النزعة المحافظة فى النقد ، أن أبا عبيدة كان شديد الوفاء لثقافته العربية البدوية الجاهلية ، شديد الانطباع بها . ولاريب أيضا أن كل حكم من هذه الأحكام التى أثرت عنه يمكن أن ينظر فيه على حدة ، وأن يتبين الباحث فيه أسبابا وعوامل مختلفة ، على النحو الذى عرضنا لشىء منه . ولكنا نحسب أن إكبار القديم كان أول هذه العوامل سلطانا على عقل أبى عبيدة ، وأفواها توجيها لأحكامه الادبية ، الى جانب مارأينا من ضعف ملكته فى تذوق الشعر ونقده .

وهناك ناحية أخرى فى النقد نستطيع أن نرى فيها أبا عبيدة العالم الذى يعتمد فى نقده على العلم والرواية ، وهى نقد الشعر من حيث تميز الموضوع منه والأصيل والزائف والصحيح ، فان فتنة الناس برواية الشعر كما رأينا فى أول هذا الفصل ، جعل منها صناعة يتنافس مصطنعوها فى التماس وسائلها ، والافتنان فى توسيع دائرتها ، وكفاية الحاجات المختلفة فى هذه « السوق الجديدة » ، وإذ ذاك لم يعد تلقى الشعر وحده كافيا فى إرضاء هذه السوق المنهومة الرغيبة التى لاتشبع ولاتقنع ، ثم فى إرضاء روح المنافسة بين الرواة . ومن هنا نشأت بين هؤلاء الرواة صناعة وضع الشعر ، فكان الواحد منهم ، من أصحاب الموهبة الفنية والقدرة على قول الشعر ، يعتمد على موهبته هذه ويستغلها فى صناعة الأشعار على غرار الشعر القديم ، وإزجاء مايصنع من ذلك الشعر الزائف فى معرض الشعر الأصيل ، على نحو قريب مما نعرف فى أيامنا هذه عند تجار التحف الأثرية . وقد عرف بهذا من أهل البصرة خلف الأحمر ، كما عرف به حماد الراوية من أهل الكوفة . بل يظهر أن هذا الفن الجديد كانت له فتنته التى تجاوزت منطقة الملابسات التى أشرنا اليها ، فنرى أن بعض من عرفوا بالتورع والتأثم والدقة لم يستطيعوا فى بعض الأحيان أن يتحصنوا من هذه الفتنة ، ومن ذلك - فيما نحسب - ماروى من هذا القبيل عن أبى عمرو بن العلاء .

وبذلك انفتح لأصحاب الشعر هذا الباب من النقد ، ينفذون منه الى دفع هذا النوع من الفساد ، ثم كان لهم بعد ذلك سبيلان متميزتان : سبيل الشعراء أو أصحاب الذوق الشعرى ، وسبيل العلماء أصحاب الرواية والمقاييس العلمية

فاما المنهج الأول فلعلنا نستطيع أن نتمثله فى هذه القصة التى يرويها أبوعبيده عن صاحبه بشار أنه سمعه ، يقول ـ وقد أنشد فى شعر الأعشى هذا البيت :

وأنكرتنى ، وما كان الذى نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا

هذا بيت مصنوع مايشبه كلام الأعشى ، . قال ابو عبيدة : « فلما كان بعد هذا بعشر سنين ، كنت جالسا عند يونس ، فقال : حدثنى أبو عمرو بن العلاء أنه صنع هذا البيت ، وأدخله فى شعر الأعشى . فجعلت حينئذ ازداد عجبا من فطنة بشار ، وصحة قريحته ، وجودة نقده للشعر » (١)

فهنا ترى أن الذوق الفنى هو الذى استشعر الفرق بين هذا البيت المنحول للأعشى وبين ماعرف من شعره ، فحكم بأنه مصنوع . ولكن بشارا لم يكن شاعرا فحسب ، ولكنه كان قبل ذلك عالما بالشعر دارساً له ، وقد مكنته شاعريته من إدراك الطعوم المختلفة والظلال المتفاوتة التى يتميز بها كل شاعر عن الآخر ، وبذلك صح حدسه وأصاب نقده . وشأن بشار فى هذا هو شأن بعض الرواة الذين كانت لهم هذه الشاعرية أو ذلك الذوق الفنى ، كخلف الأحمر . ويحكى ابن سلام أن قائلا قال له : « اذا سمعت أنا بالشعر واستحسنته فما أبالى ماقالت فيه أنت وأصحابك » ، فقال له خلف : « إذا أخذت أنت درهما فاستحسنته ، فقال لك الصراف إنه ردىء ، هل ينفعك استحسانك له ؟ » (٢)

وأما المنهج الثانى فيمكن أن نتمثله فى هذه القطعة التى أوردها صاحب المزهر عن كتاب الأيام لأبى عبيدة ، قال : « وأنشد ابو عبيدة فى كتاب أيام العرب ، لهند ابنة النعمان :

---

(١) الاغانى ٣ : ١٤٣

(٢) طبقات الشعراء ص ٤ ط ليدن .

ألا من مبلغ هنـــداً رسولا فقد جـــد النفير بعنقفير
فليت الجيش كلهم فداكم ونفسى والسرير وذو السرير
فإن تك نعمة وظهور قومى فيـــانعم البشارة للبشير

ثم قال أبو عبيدة: وهى مصنوعة لم يعرفها أبو بردة، ولا أبو الزعراء، ولا أبو فراس، ولا أبو سريرة، ولا الأغطش. وسألتهم عنها قبل مخرج ابراهيم بن عبد الله بسنتين، فلم يعرفوا منها شيئا، وهى مع نقيضة لها أخذت عن حماد الراوية». (١)

فذلك أسلوب آخر فى هذا الفن من النقد لا يعتمد على الفطنة والقريحة أو «الذوق الفنى» كما رأينا فى الاسلوب الأول، وإنما يعتمد على المعرفة والرواية والتتبع والتحرى، كما نرى فيما يحكيه ابو عبيدة عن نفسه فى هذه القطعة

ولكن الأمر هنـــا كالأمر هناك. فكما رأينا فى المنهج الفنى أن العلم بالشعر وروايته ودراسته مما لابد منه، ولا غناء عنه، فى ذلك اللون من الوان النقد، فكذلك الأمر هنا فى هذا المنهج القائم أول شىء على العلم والدرس والرواية. فإنه مهما يكن الدارس للشعر، ومهما يكن أثر الاستغراق فى هذه الرواية على الاتجاه الفنى، فإنها تاركة عنده - ولابد - نوعا من التذوق، لعله لايكون صادرا عن «موهبة فنية»، ولكنه يستطيع أن يتبين به على وجـــه ما شيئا من الفرق بين شعر وشعر. وإن يكن الشأن الأول فى هذا المنهج إنما هو للعلم والمعرفة والرواية والمدارسة، ثم يجىء هذا النوع من التذوق رافدا له

وكذلك كان أبو عبيدة فيما نرى. وإذا كان يبدو لنا فى القطعة المأخوذة من كتاب الأيام أنه يجعل معتمده فى تعرف صحيح الشعر من مصنوعه على قول الرواة وشهادة أهل البادية، فليس فى ذلك ماينفى إحساسه بأن فى ذلك الشعر شيئا يريبه، مما يحمله على سؤال هذا أو ذاك فى أمره، والتماس الأخذ بالثقة فى الحكم عليه، كما نستطيع أن نرى ذلك فى هذا الخبر الذى يرويه ابن سلام عنه، قال:

---

(١) المزهر للسيوطى ١ : ١٠٩، ط محمد على صبيح، مصر

« اخبرنى أبو عبيدة : أن ابن دؤاد بن متمم بن نويرة قدم البصرة فى بعض مايقدم له البدوى ، فى الجلب والميرة ، فنزل النحيت. فأتيته أنا وابن نوح ، فسألناه عن شعر أبيه متمم ، وقلنا له بحاجته ، وكفيناه ضيعته ، فلما نفد شعر أبيه جعل يزيد فى الأشعار ويصنعها لنا ، وإذا كلام دون كلام متمم ، وإذا هو يحتذى على كلامه ، فيذكر المواضع التى ذكرها والوقائع التى شهدها . فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعله »[1]

وهكذا ترى فى هذا الفن من النقد أبا عبيدة العالم الراوية قبل كل شىء كما رأيناه فى ذلك الفن الآخر

* * *

وهناك ناحية أخرى تتصل بالنقد اتصالا قريبا ، ومانحب أن نفرغ من هذا الفصل قبل أن نعرض لها ، ونشير إلى أثر أبى عبيدة فيها ، وهى ناحية تصنيف الآثار الأدبية ، إذ كان ذلك التصنيف يعتمد فى حقيقة أمره على النظر العام الشامل ، وعلى نوع من التجريد فى اعتبار هذه الآثار وتفهمها وملاحظة مابينها من روابط وفروق ، تجمع متشابهها وتميز متباينها ، على حسب وجهة النظر اليها ، فهناك ، مثلا ، نوع من التصنيف يتجه إلى مواطن الآثار الأدبية ، وهناك نوع آخر يتجه إلى فنونه

أما مواطن الأدب بالنسبة لذلك العصر فاكثر ماكان يمكن أن تعنيه هى القبائل التى ينتسب الشعراء اليها . وقد كتب أبو عبيدة عن هذه القبائل طائفة من الكتب لم يصل إلينا منها إلا أشتات قليلة موزعة فى كتب الادب المختلفة وقد عرض - فيما يبدو - فيها لشعر هذه القبائل على نحو ما . والكلام عن مكانات القبائل فى الشعر ، والموازنة بينهم فيه قديم ، منذ كان الشعراء ألسنة قبائلهم المدافعين عنهم والمذيعين لمآثرهم ، فلا جرم أن كانت الموازنة بينهم مرتبطة بالمفاخرة بين القبائل التى يمثلونها . وأكبر الظن ان علم أبى عبيدة فى هذا كان علم رواية ، على ماهو الغالب عليه

---

(١) طبقات الشعراء ص ١٤ ط ليدن :

فتصنيف الشعر باعتبار القبائل سبيل قائمة ، سار أبو عبيدة فيها كما سار غيره من الرواة ، ولكن الشيء الذى يلفت النظر فى تصنيف الشعر باعتبار موطنه هو تصنيفه إلى شعر بدوى صدر عن البادية ، وشعر حضرى صدر عن المدن أو القرى ، ولعل هذا هو أصل مانجده عند ابن سلام فيما بعد ، فى الجزء الأول من كتابه الذى جعله للشعراء الجاهليين ، فذكر طبقاتهم طبقة طبقة ، ثم أفرد بعد ذلك شعراء القرى العربية بطبقة على حدة . وها هو ذا نص أبى عبيدة ، كما أورده البيهقى ابراهيم بن محسن . قال :

« الشعراء فى الجاهلية من أهل البادية أهل نجد ، منهم امرؤ القيس والنابغة وزهير ودريد بن الصمة ، ومنهم كثير فى الاسلام ، فهؤلاء الشعراء الفحول الذين مدحوا وفخروا وذموا ووصفوا الخيل والمطر والديار وأهلها . وأشعر أهل المدن أهل يثرب وأهل الطائف وعبد القيس ، وليس فى بنى حنيفة شاعر »[1] . وقد روى عنه فى مواضع أخر أن أشعر أهل المدن أهل يثرب وأن أشعر أهل يثرب حسان بن ثابت . أما أهل الطائف وعبد قيس وهم أهل البحرين فتختلف الروايات عنه فى المفاضلة بينهما ، على أن أشعر أهل الطائف عنده هو أمية بن ابى الصلت

والذى يعنينا من هـذا هو تاريخ الاتجـاه الى تصنيف الشعر العربى تبعاً للبلدان التى ينتسب الشعراء اليها ، وهو التصنيف الذى استفاض فيما بعد ، وإن كانت استفاضته ترجع الى عوامل أخرى ليس هذا موضع الكلام عنها .

فأما تصنيف الشعر حسب فنونه . وهى تلك الأبواب العامة التى قيل إن الشعر العربى موزع بينها كالمدح والرثاء ، والغزل والهجاء ، والزهد والوصف فيبدو أن ذلك أمر لم يكن قد آن بعد أوانه ، فى تلك الفترة من الزمن ، إذ كانت أسبابه لم تكن قد تهيأت له . وها هى ذى المجموعات الشعرية التى

(١) المحاسن والمساوىء ٢ : ٩٦ ط السعادة ، القاهرة ، ١٩٠٦ م

وضعت إذ ذاك كالمفضليات والاصمعيات ونوادر أبي زيد الانصارى وجمهرة أبي زيد القرشى (على شيء من الريبة يداخل هـذه الأخيرة) ، ليست إلا نوعا من التسجيل لروايات أصحابها ، بعد شيء من الاختيار القائم على الاعتبار الفنى أو الاعتبار اللغوى . وقد نرى فى الجمهرة نوعا من التصنيف ولكن الجمهرة ـ كما قلنا ـ مريبة ، من ناحية ، وهـذا التصنيف ليس هو الذى نعنيه من ناحية أخرى ، إلا ما نرى من إفراد المراثى بباب على حدة . على النحو الذى نراه عند ابن سلام .

وأمر المراثى خليق بالنظر والتأمل ، إذ يبدو أنها كانت أسبق فنون الشعر إلى الانفراد بمكان خاص بها فى كتب الشعر كما رأينا ، وأكبر الظن أن أبا عبيدة نفسه عنى بها عناية خاصة ، وقد حكى البيهقى عنه أنه قال : « أحسن مناطق الشعر المراثى والبكاء على الشيب . وكان بنو مروان لا يقبلون الشاعر إلا أن يكون راوية للمراثى ، ويقولون إن فيها ذكر معالى الأمور » ، ثم قال البيهقى : « وقيل لأبى عبيدة : ما أجود الشعر؟ قال النمط الأوسط ، يعنى المراثى. قال : وسألت أعرابيا : ما أجود الشعر عندكم ؟ قال : مارثينا به آباءنا وأولادنا. وذلك أنا نقولها وأكبادنا تحترق »[1] . وبين كتبه التى اندثرت واحتفظ ابن النديم باسمائها كتاب اسمه « كتاب النوائح » يغلب على الظن أنه كسره أو جزءا كبيرا منه على قصائد الرثاء ومقطوعاته

ولكن أبا عبيدة إذا كان لم يتجه ـ كما رأينا ـ إلى تصنيف الشعر بحسب فنونه ، على النحو الذى عرف فيما بعد ، فانه ليبدو لنا أنه لم يقف عند الرواية والجمع والاختيار ، وإنما تجاوز ذلك وسلك إلى التصنيف سبيلا أخرى ، هى تصنيفه بحسب موضوعاته الجزئية التى يمكن أن تندرج تحت تلك الفنون العامة التى لم يكن عرف التصنيف اليها بعد . ذلك أن اتجاهه إلى تصوير الحياة العربية ،

(١) المحاسن والمساوى ٢ : ٩٦ ، ط السعادة ، القاهره ، ١٩٠٦ م

والتعريف بنواحيها المختلفة ، كما رأينا من قبل ، قد أخذه بتصنيف الكتب لتحقيق ذلك الاتجاه ، يتناول فيها موضوعات هذه الحياة ، كل موضوع فى كتاب خاص به على النحو الذى نستطيع أن نتمثل صورة منه فى فهرست كتبه التى أوردها ابن النديم، وإذ كان الشعر من أصل العناصر فى نواحى الحياة العربية وفى تصويرها ، فان ذلك الاتجاه قد استتبع بطبيعته أن تتضمن هـــذه الكتب النصوص الشعرية التى تتصل بموضوعاتها

ونحن حين نقرر هذا لاننبى ذلك الافتراض على أصالة العنصر الشعرى فحسب ، ولكن الأمر بحيث نكاد نضع أيدينا عليه ، فمن هذه الكتب ما كان الشعر هو الأصل فيه ، والعنصر الأول فى تأليفه ، ثم تجىء الأخبار من بعد لتفسير ذلك الشعر وبيان إشاراته ، ككتاب النقائض بين جرير والفرزدق ، ومثل هذا لا مراء فى مكان الشعر منه ، فأما ماعدا مثل هذا الكتاب ، فانما نقيس منها ماغاب عنا على مابقى لدينا ، فها هو ذا كتاب ككتاب الخيل ـ وقد أبقت عليه يد الحدثان ـــ نستطيع أن نتعرف منه أسلوب أبى عبيدة فى أمثاله من الكتب التى وضعها للتعريف بألوان الحياة العربيه ككتبه التى وضعها عن بعض أصناف الحيوان ، كالبازى والحمام والحيات ، أو تلك الطائفة من كتبه التى بناها على بيان المآثر والمثالب والمثالب . فكتاب الخيل هذا لم يخل موضع من مواضعه من شعر يسوقه ليكون شاهدا له . فى سياق كلامه عن الصفات المختلفة للخيل ، ولكنه فضلا عن ذلك يعقد فى آخره فصلا طويلا يضمنه كثيرا مما قالته العرب فى أشعارها من صفة الخيل . فللشعر إذن مكانه الواضح الجلى فيه ، وكذلك الأمر ـ فيما نحسب ـ فى أمثاله ونظائره ، وبعضها أمس منه بالشعر وأكثر استدعاء له ، واقتضاء لايراده . على انه قد بقى لدينا من بعض هذه الكتب بقايا تدل هذه الدلالة ، وتشهد مثل هذه الشهادة ، مما لايكاد يدع لدينا شكا فى الجانب الشعرى لهذه الطائفة من الكتب ، وأن أبا عبيدة استطاع بها ان يصنف الشعر على هذا الوجه ، وإن كان لم يقصد فيها أو فى اكثرها الى الشعر فى نفسه ، ولكن هذا النوع من التصنيف كان على كل حال الخطوة

---

(٢) المحاسن والمساوى ٢ : ٣٤ ، ط السعادة ، القاهرة ، ١٩٠٦ م

الطبيعية التى سبقت التصنيف بحسب الفنون .

وبعد فهذا هو أبو عبيدة الراوية الناقد ، وهذا هو مذهبه فى الرواية وأسلوبه فى النقد . ولعلنا نكون قد استطعنا فيما قدمنا أن نبرز الخطوط الرئيسية لهاتين الناحيتين الوثيقتى الصلة فى تاريخ كل أدب ، وأن نحرر القول فيها ونزيل الابهام الذى كان مطبقا عليهما ، قدر ماتتيح لنا أن نبينه من خلال تلك البقايا القليلة والآثارات الضئيلة المتناثرة هنا وهنا ، مما يتصل بهذه الموضوع ، بعد أن عبثت بكتبه أعاصير الزمن .

ولقد كان فيما خلفه أبو عبيدة من الكتب كتاب يذكره ابن النديم باسم « كتاب الشعر والشعراء » ، أكبر الظن انه لو وصل الينا لاستطاع أن يقيمنا على الجادة ، ويسددنا فى سواء السبيل

ولكن مهما يكن من أمر فإن مما يبعث فى قلوبنا بالطمأنينة العلمية لهذه الصورة التى أتيحت لنا عن أبى عبيدة الراوية الناقد هو أنها صورة منسقة الأجزاء ، منسجمة مع ما أتيح لنا أن نعرفه من صور حياته الأخرى ، وأننا لم نأل جهداً فى اصطناع الأسلوب العلمى الذى يضعه فى مكانه الطبيعى من غير تحامل أو محاباة .

طه الحاجرى